

روسيا ومسلمو القوقاز

روسيا ومسلمو القوقاز

إنّ جرائم الروس تجاه القوقاز قديمة جداً ، وهي سلسلة طويلة ومستمرّة منذ زمن طويل إلى أيامنا هذه ، ونفس الأساليب الوحشية التي تُتخذ ضدّ جميع المسلمين في أنحاء العالم الذين قد سلّطت عليهم هذه الدول يجري لمسلمي القوقاز ، فالاحتلال الروسي كعهده في الإجرام اغتصب أراضي هؤلاء المسلمين ، وأخذ يُحدّث كل أشكال التنكيل والتدمير في بلادهم ، وبطبيعة الحال قام الشباب والشيوخ والنساء في البلدان الإسلامية المتاخمة لروسيا بالدفاع عن أراضيهم وكرامتهم ودينهم ، وبالرغم من التفاوت الكبير في الإمكانيات العسكرية فإنّ المجاهدين استطاعوا أن يُحقّقوا انتصارات كبيرة وساحقة على المحتل الروسي ، لأنّه من المعروف أنّ قوة المحتل

المغتصب مهما بلغت من القدرات تبقى ضئيلة أمام مجاهدين دأبهم البحث عن الموت ، ويتمنونه أكثر مما يتمنى الجنود الروس الحياة .

وعندما تكاثرت الهزائم التي تكبدها الجيش الروسي شعر بنقمة شديدة ، فصبّ جام غضبه على المدنيين ، فقد دمر بين عام ١٨٠٧ إلى ١٨١٠ مئتي قرية!! مما أدى إلى مقتل وتشريد وإصابة عشرات الآلاف من الأمنيين ، وفي ١٨٢٢ قام الجنرال الروسي (فلاتسوف) بتدمير ١١٩ قرية وإحراق ١٧ بلدة في المنطقة ذاتها^(١) .

ولقد ذكر المؤرخون الروس أنفسهم حجم الدمار الرهيب الذي خلفه الجيش الروسي في هذه الحرب ، ووصفوا أعداد القتلى الذين فاقوا عشرات الآلاف من المدنيين ، وقالوا: إنّ الجنود الروس كانوا يقتلونهم تارة بالرصاص وتارة يقتلونهم بالحراش تمزيقاً لأجسادهم ، وكثير من النساء والأطفال الذين حاولوا الفرار وقعوا في النيران التي أوقدها الجيش الروسي ، وكانت الكثيرات من

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: للأستاذ إحسان عبد الحميد
خن ص ٢١ .

النساء المسلمات يُفضلن الانتحار على أن يقعن فريسة بأيدي المغتصبين الروس ، إذ كانت النساء يلقين بأنفسهنّ في حال حصارهن من شاهق الجبل إلى أسفل الوادي ، أو تقذف المرأة بجسدها في مجاري الأنهار الجبلية المتدفقة ، والتي تكون نهايتها بطبيعة الحال الموت غرقاً ، وإنما اختارت النساء هذا المصير لعفتهنّ وعزّتهنّ ودينهنّ بدلاً من وقوعهنّ بأيدي المغتصبين الساديين الروس أولاً ، ولحجم الأهوال والمآسي التي يُمارسها الجيش الروسي على الأسرى نساءً وأطفالاً .

أما في منطقة الشيشان فكانت الجرائم والأعمال الحربية أكثر ضراوة ووحشية ، فخلال الحملة التي قادها (روزن وفليامينوف) عام ١٨٣٢ لإخضاع شيشينا السفلى واتشكيريا تمّ تدمير أكثر من ٧٠ قرية تدميراً كاملاً بالإضافة إلى قتل وتشريد الآلاف من السكان المدنيين ، وكان هناك العدد الكبير من الجرائم التي تمّ ارتكابها في هذه المنطقة ، خصوصاً تلك المجازر التي قام بها الجنرال (فورنتسوف) والجنرال (يرمولوف) الذي اشتهر بلقب (جزار القفقاس) وقد حشد الروس

في هذه المعركة ١١٢,٠٠٠ جندي مسلّحين بالمدفعية ، وبالرغم من كل هذه الإعدادات الكبيرة والأسلحة التي كان يستخدمها الجنود الروس فقد أُلْحِقَتْ بهم هزائم خطيرة.

وكان الجيشُ الروسي عندما ييأس من تحقيق الانتصار على المجاهدين المسلمين يتوجّه إلى الأهالي ، فيُحوّل القرى والمدن الآهلة بالسكان المدنيين إلى ساحة قتال حقيقية ، فيواجهون الأطفال والنساء والشيخوخ بالمدافع والقنابل والحرق والاغتصاب ، والسلب والنهب بالإضافة إلى محاصرتهم للسواحل القوقازية التي أسفرت على عدم استطاعة القوقازيين الحصول على الإمدادات العسكرية والغذائية.

ويعترف أحد كبار الضباط الروس أنهم قد أبادوا نصف الشراكسة المسلمين من أجل أن يخضعَ النصف الآخر للاحتلال الروسي ، ويُحمّل الشراكسة المسلمين مسؤولية هذه الحرب ، لكونهم لم يخضعوا للاحتلال الروسي ، ولو أنهم أخضعوا أعناقهم لهذا الاحتلال لما أبادت روسيا

القيصرية الشعب الشركسي^(١).

لقد انخفض عدد الشيشان من ٨٠٠,٠٠٠ شيشاني عام ١٨٤٧ إلى ٤٠٠,٠٠٠ شيشاني عام ١٨٥٠ ، وانخفض إلى ٢٠٠,٠٠ شيشاني عام ١٨٦٠ فكانت السياسة هي سياسة إبادة حقيقية ، أما الشابسوغ^(٢) فقد انخفض عددهم من ٧٠٠,٠٠٠ نسمة في بداية الحرب عام ١٧٧٩ إلى ١٥٠,٠٠٠ عام ١٨٣١ ، وفي هذا يقول العالم والسياسي الإنكليزي (جيمس بيل) في كتابه (جورنال الإقامة في شركسيا): تغلب هاتان المنطقتان شابسوغ وناخواخ منذ عشرات السنين على قوات أوسع وأظلم إمبراطورية في أوربة ، والتي عدا ذلك تمتلك الفنون الحربية التي وصلت إليها أوربة الحديثة .

ومن ذلك يتّضح أنهم كانوا يمارسون سياسة إبادة على المدنيين ، فكانوا يفشلون في مجابهة المجاهدين الشرفاء الذين يدافعون عن وطنهم ، فيصبّوا جام غضبهم على

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: للأستاذ إحسان عبد الحميد
خن ص ٢٥ .

(٢) الشابسوغ: هو عرق من أعراق تلك البلاد .

الضعفاء ، وبعون الله عزَّ وجلَّ وبعزة الإسلام قُتِلَ من الجنود الروس ما يُقدَّر بمليون وستمئة ألف جندي روسي على أيدي المجاهدين الشرفاء ، وعندما انهارت الخطوط الدفاعية للمجاهدين انكبَّ الجنود الروس على المدنيين بمجازر وحشية ، ولقد برز سفاحون عالميون من الجنرالات الروس الذين قاموا بهذه المجازر ونذكر منهم: إفريين وغايمان وشاتيلوف وميرسكي وغيرهم الكثير^(١).

وكان هناك الآلاف من القرى والبلدات الشركسية التي أُبِيدت وأُحْرِقَتْ ، فعلى سبيل المثال عندما تقدَّمت إحدى القوات الروسية المؤلفة من ١٤,٠٠٠ جندي لم تكن القوات المدافعة في تلك المنطقة تزيد على ٧٠٠ مقاتل ، وكان يتزعَّم هذه القوات (منصور بك) الذي أبى أن يتزحزح أو ينسحب إلى مواقع جديدة صائحاً في جنوده: لن نترك بلادنا ، وإذا لم تأتِنا النجدة فسوف نقطع رؤوس نساءنا وأطفالنا ونحرق بيوتنا وممتلكاتنا ، ثم ننسحب إلى الصخور العالية ونُدافع عن أنفسنا حتى يُقتل آخر رجلٍ منا.

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: ص ٢٧.

لقد نطق القائد الشركسي بهذا الكلام لعلمه اليقيني بأنه إذا قام بقطع رؤوس أبنائه وزوجته خير له من أن يقعوا أسرى بيد هؤلاء الروس المُحتلّين ، وعندما دخلَ الروس القرية قتلوا الشيوخ وكأنهم شباب ، واغتصبوا النساء وكأنهنّ بغايا ، وذبحوا الأطفال كالنعاج ، وأحرقوا الأشجار ، ولم يبقَ في القرية حجر على حجر .

ويصف أحد الجنود الروس كيفَ أنهم دخلوا قريةً فأبادوها عن بكرة أبيها ، ولم يبقَ منها إلّا طفل صغير فأخذ ينظر إلى قريته وهو يتيم لا يجدُ أحداً يلجأُ إليه ، ثم نظرَ إلى القوات الروسية وهي تُغادرُ فسعى يجري خلفها .

وإننا إذا تأملنا في السبب الذي يدفعُ هذا الطفل إلى الجريان خلف القوّاتِ الروسية لا نجدُ إلّا أنه يئسَ من الحياةِ يأساً كاملاً بعد أن تذكّر مقتل أبيه وأمه وإخوانه ودمار داره وحرق بستانه ، فلم يعد يريد أن يعيشَ أصلاً ، ومن أجلِ ذلك ركض خلفَ القواتِ الروسية ليلحق بأبيه وأمه ، انظر إلى هذه الوحشية التي دفعت الأطفال إلى الانتحار!! وإن جري مثل هذا الطفل الصغير وراء المركبات المجنزرة الروسية فإنما يُعتبر انتحاراً ، ولا سيما

أنهم قد أبادوا القرية بأكملها ، فما أهونُ أن يُوجَّهوا إلى رأسه الصغير رصاصة تقضي على حياته .

وبعد ارتكاب هذه المجازرِ شعر الروس بحاجة إلى ترحيل من بقي من السكان المسلمين في هذه المناطق ، فحشدوا جمعَ السكان المتبقين على الشواطئ ، وباركت تركيا هذا التطهير العرقي ، لمصالح سياسية وديموغرافية^(١) وإذا نظرت إليهم فتجد أنهم أناسٌ محشودون منهم من استلقى على وجهه ، ومنهم من استلقى على ظهره ، في هُزال شديد ، مات بعضهم نتيجة الجراح ومات الآخرون نتيجة البرد والجوع ، وكانت أعداد الأطفال متكثلة بعضها على بعض ، ولعلك ترى طفلاً مُتكثلاً على نفسه بحيث إن ركبتيه قد التصقتا بذقنه من شدة الرعب والذعر!

ونُقل مليون ونصف شركسي في السفن التركية مُهجراً من أرضه ووطنه ، وغرق في البحر ثلاثمئة ألف شركسي أثناء عملية النقل ، يقول أحد الضباط البولونيين في كتابه

(١) يقصد بالمصالح الديموغرافية تقسيم السكان على المناطق بما يتناسب مع الأهداف الأمنية والسياسية .

(السنة الأخيرة لحروب الشركس من أجل الاستقلال):

- (لقد كان الأتراك في منتهى الطمع والجشع إلى الحد الذي قاموا فيه بحشر أكثر من ٣٠٠ أو ٤٠٠ شخص على سطح المركب الذي لا يستوعب في الأحوال العادية إلاّ لستين شخصاً ، وكل ما قام به الشراكسة بحمله من الزاد لم يكن يتعدّى حفنات من القمح وبراميل صغيرة من الماء ، وعندما كان الطقسُ يتحسن كانت تنتظر الشركس مصائب جديدة ، إذ أنّ سكون الرياح كان يمنعُ الإبحار (هذا يعني طول مدة الرحلة) وعندها كانوا يستسلمون لموت بطيء ومريع من الجوع والعطش ، وهناك حوادث مرعبة حول غرق واحتراق عدد كبير من السفن مع ركابها ، وموت نصف المهجرين على متن عدد آخر من السفن ، فألقوهم في البحر قبل الدخول إلى ميناء طرابزون التركي) ويضيف:

(إنّ الذين وصلوا إلى هنا في أوائل الشتاء كان عددهم يُقاربُ ١٢٠٠٠ مهجر ماتوا جميعهم تقريباً بسبب الجوع والمرض ، وعدم توفر ظروف المعيشة والحياة ، لقد كان الأتراك يُقدّمون رغيفاً واحداً يومياً لكل رجل أو امرأة،

وكان الكثير منهم لا يصلُ إليه حتى هذا الرغيف! ومع كل ذلك كانوا ملتزمين بالدين التزاماً قوياً ، فإذا قام المؤذن بإعلام الناس بالصلاة تجمعهر الناس حول أئمتهم فقاموا وصلّوا وسجدوا وركعوا، لقد حورب هؤلاء الشرفاء لالتزامهم بعقيدتهم ودينهم، ولتمسّكهم بأرضهم وكرامتهم^(١).

وأما الجانب الآخر فترى أنّ الجنود الروس يخمرون ويسكرون ويتراقصون ، وقد تهافت عليهم البغايا ليحتفلوا بعيد انتصارهم الوطني المجيد.

أما الحرب الشيوعيّة الإلحاديّة على المسلمين فكانت شديدة الوحشية ، فمنذ أن تشكّل الاتحاد السوفيتي أصدرت الحكومة الشيوعيّة قوانين لإلغاء الدين ، ففي عام ١٩٢٤ أغلقت المحاكم الشرعية ، ثم قامت بإغلاق المساجد والمدارس الدينيّة واعتقال الأئمة والخطباء وزجّوهم في أقبية المعتقلات ، ويجب أن يُذكر أنه في روسيا وحدها كان هناك ٢٦,٠٠٠ مسجد للمسلمين ، وكانت هذه المساجد يؤمّها خلق كثير من المسلمين

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: ص ٢٩.

يتعبدون ويصلّون ، وكان ذلك في عام ١٩١٢ ، وفي عام ١٩٤١ لم يبقَ من هذه المساجد إلّا ألف مسجد تقريباً!! أما الباقي فقد هُدم أو صودر أو استُملِكَ وحوّلَ إلى مراقص وحانات ومراكز تجارية ، وهذا واقع المساجد الآن في فلسطين المُحتلّة ، فقد حوّلَ الكثير من المساجد إلى حانات وأندية للقمار ، ويتّضحُ لك الحقد الدفين القذر عندما يُحوّلون جميع هذه المساجد إلى أماكن للخمور والقمار والدعارة ، وجُعِلَتْ بعض المساجد عبارة عن خرابات لرمي القمامة والقاذورات .

وفي ١٩٤٣ صدر قرار سوفيتي بإغلاق المساجد جميعاً في الشيشان ، ومُنِعَ الناسُ من العبادة ، وفي عام ١٩٧٨ أُذِنَ بافتتاح مسجدين فقط في جمهورية الشيشان ، وفي عام ١٩٨٠ أُحصِيَ عدد المساجد في جمهورية الشيشان - أنغوش بـ ٧ مساجد و ٢ في جمهورية (كابردينا - بلقاريا) و ٤ في منطقة (قرتشاي - تشركس)^(١) .

وفي عهد (خروتشوف) أُغْلِقَتْ جميعُ المساجد في الاتحاد السوفيتي ، وأُغْلِقَتْ جميع مراكز الحجيج ولوحق

(١) المرجع السابق: ص ٣٣ .

المسلمون ملاحقةً المُخربين ، فكان الذي يُرى يُصلي
يُتهم بالخيانة العظمى ، ووجه الإعلام الحكومي حملات
دعائية عنيفة ضد الدين ، فعلى سبيل المثال نُشر في
الاتحاد السوفييتي فقط في الفترة الواقعة ما بين عام
١٩٥٤ - ١٩٦٤ حوالي ٩٢٠ كتاباً ضد الإسلام بلغات
إسلامية مختلفة ، ففي داغستان وحدها نُشر حوالي ١٤٠
مؤلفاً والأديغة ١٢ مؤلفاً والأبخاز ٦ مؤلفات والقرشاي
بلقار ٣ مؤلفات والأوسيت مؤلفان والأبازة مؤلف
واحد^(١).

ووجهت جميع وسائل الإعلام في الاتحاد السوفييتي
للمعاداة الإسلام وتشويهه في أذهان الجميع ، فكانوا يبثون
برامج وأفلاماً ومسلسلات تسخر من الدين الإسلامي ،
وتظهر عبادة المسلمين وكأنها ممارسات هستيرية تُثيرُ
الضحك ، ونسبوا سبب فقر المسلمين وتخلّفهم إلى
اتباعهم للعقيدة الإسلامية ، وقالوا: إن الشيوعية
الماركسية هي التي رفعت المسلمين من هذا الذلّ
والخراب الذي كانوا يعيشون فيه ، مع العلم أنّ الذي جاء

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: ص ٣٤.

بالذلّ والخراب هو الاحتلال الروسي لهذه الدول الإسلامية والشعوب الإسلامية التي كانت تعيش في رخاء واستقرار.

وقد سئم المسلمون من هذه السياسة في الجمهوريات الإسلامية قبيل نشوب الحرب العالمية ، فشكّلوا جيشاً قوامه ٢٠,٠٠٠ مقاتل ، سمّوه بالفيلق الإسلامي ، وتحالفوا مع الألمان ليُحقّقوا حرّيتهم الدينية وحرّيتهم الوطنية والقومية أيضاً ، ولكن نتيجة انهزام الألمان في هذه الحرب وقع هؤلاء أسرى فُقلوا إلى النمسا في معسكرات ، ثم قامت بريطانيا بتسليمهم إلى الروس الذين قاموا بدورهم بإعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص ، لقد أعدموا أناساً يُدافعون عن أرضهم ووطنهم ودينهم وعقيدتهم ، بعد أن اغتصبوا نساءهم وقتلوا أبناءهم وشرّدوا قبائلهم وحرّقوا قراهم ودمّروا دورهم .

والعجب كلّ العجب من رجل عربي مسلم يقف موقف الدفاع عن الغرب ضارباً بعرض الحائط كلّ هذه الممارسات اللاإنسانية التي لا يُقرّها دينٌ ولا عُرفٌ ولا أخلاقٌ ولا شعورٌ إنساني أيضاً!!

وكان قائد هذا الفيلق الإسلامي رجلاً صادقاً مُخلصاً قد باع نفسه لله عز وجل ، كان يُدعى (سلطان قلعج كرى) ونتيجة لكونه يحمل جنسية غير الجنسية السوفيتية فلم تشأ الحكومة السوفيتية إعدامه مع مُقاتليه ، ولكنه تقدّمهم طواعية على أيدي المجرمين الروس ، وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى قام (ستالين) بتهجير شعوب بأكملها نساءً وشيوخاً وأطفالاً من أوطانها إلى أقاصي سيبيريا وكازاخستان ، لقد سئم (ستالين) من وجود هؤلاء المسلمين في أراضيهم ، وأراد أن يُغيّر الطبيعة الديموغرافية للاتحاد السوفيتي ، فجمع الكثير الكثير من الشعوب الإسلامية الشيشانية وأبناء الجمهوريات البطليق والتتار والأنغوش والقرتشاي ، ويُعتبر هذا اليوم (أي يوم الترحيل) يوم الجنازة الكبرى لدى الشيشان والأنغوش .

ومن المفيد أن نذكر أن العقيدة الإسلامية مُحاربة من قبل الغرب ، فترى أنها حوربت من أوربة ، وحوربت من آسيا ، وحوربت في الهند ، ومورس على المسلمين أشدّ أساليب القمع فظاظة ووحشية وأكثر الجرائم نازيةً وسادية ، ومع كل ذلك بقي الدين الإسلامي شامخاً ،

وبقية الناس يؤمنون بالله عز وجلّ ويتلون كتابه ويصلّون
 ويركعون ويسجدون ، ونتيجة لذلك أيقن عدو الإسلام أنّ
 هذا الدين لا يمكن أن يُنزع بسفك الدماء ، ولا يمكن أن
 يُستأصل بإبادة الكثير من الناس ، ولا سيما العدد الهائل
 من البشر ، لذا عمد أعداء الدين إلى تمزيق الدين من
 داخله ، وقد أيقنوا بهذه الحقيقة بعد تجارب كثيرة
 وعصور متتالية ومجازر عديدة ودماء سالت أنهاراً بل
 وشكّلت بحوراً ، ومن أجل ذلك حرب الإسلام حالياً تُشنّ
 من داخل الإسلام ، عن طريق تشويه الإسلام داخلياً ،
 ودسّ أفكار وبدع وعملاء يتمسّحون بمسوح الدين
 ويطعنونه في أحشائه من الداخل لا من الخارج ، وإني
 لأرى ثمرات هذه السياسة يانعة في العالم الإسلامي ، وقد
 أخذوا على عاتقهم تطبيق استراتيجية تفرقة المسلمين فيما
 بينهم إلى فرق ومذاهب شتى ، وزرع العداوات والبغضاء
 فيما بينهم ، من أجل أن يُحققوا هدفهم في إنهاء الإسلام
 عن طريق تمزيقه داخلياً ، وبحيث إنه يأكل بعضه بعضاً ،
 ويعتقدون أنّ هذه الجهود سوف تُثمر وتُنتهي هذا الدين
 فيُحققون هدفهم المنشود .

وأقول: بالرغم من خُبث هذه الوسيلة وتأثيرها الواضح في الأمة الإسلامية ، لكنها لن تُنهي الإسلام ، لا شك أنها ستؤثر عليه ولكن لن تُنهيه أبداً ، والفضلُ في ذلك يعودُ لله عزّ وجلّ وحده ، حيث تكفلَ بحفظ هذا الدين ، ولو تُركَ الدين إلى البشر بنوعِهم أعداء يسعون إلى تحطيمه وأنصاراً يسعون إلى ترسيخه ؛ لكان قد ذهب منذ عصور كثيرة. إنّ بقاء هذا الدين قدرٌ إلهي ، وإنّ استمراره نتيجة مدد إلهي ، إلى أن تقوم الساعة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

لقد بذل الغريّون وعلى رأسهم الروس الجهود الجبارة في قهر الشعوب الإسلامية واحتلالها ، وقد كانت (غروزني) وهي عاصمة الشيشان إحدى هذه المدن التي دُمّرت دماراً شبه تام ، فكان الجنود الروس عندما يدخلون هذه المدينة ويُقاتلون المقاتلين الشيشان الأشراف يحرقون الجثث وذلك لسبيين: أولهما: الرغبة في التشفي نتيجة الحقد الكبير الذي ملأ صدورهم ، وثانيهما: إخفاء القتلى عن الرأي العام العالمي ، مع العلم أنّ المتحكّمين بالرأي

(١) الحجر: ٩.

العام العالمي ، يرون كلّ ذلك ، ويتسمون ابتسامة
الراضي!!

وكان الروس يتبعون سياسة الأرض المحروقة
ولا سيما (في غروزني) فلم يبقَ في غزروني حجر على
حجر قائم تقريباً ، فقد تحوّلت هذه المدينة الجميلة إلى
رُكام من الحجارة والرمال ، وأشلاء وجُثث مبعثرة ،
ودبابات وآليات في كل مكان منها ما احترق ومنها ما يسير
باحثاً عما يُدمّره ، وقُتل الكثير من المدنيين ، وقرّ الكثير ،
وتشرّد الكثير^(١).

* * *

(١) الشيشان مأساة الحرب وجريمة العصر: ص ٤٦.